ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 05 سبتمبر 2016

العلمنة وعجز الدين الفرداني

ستيف بروس

ترجمة: هاجر كنبع

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016

العلمنة وعجز الدين الفرداني[1]

ستيف بروس[2]

ترجمة: **هاجر كنبع**

1 وردت هذه المقالة في مجلة: «The Hedgehog Review / spring & summer 06»

2 كان ستيف بروس أستاذ علم الاجتماع في جامعة أبردين منذ عام 1991. وقد كتب بإسهاب عن الدين في العالم الحديث، وعن التفاعل بين الدين والسياسة. وأحدث أعماله المتعلقة بسوسيولوجيا الدين هي: **الأصولية** (2001)، **ومات الله: العلمنة في الغرب** (2002)، **والسياسية والدين** (2003).

يجمع براديغم العلمنة (Secularization) بين أمرين: إثبات يهمّ التغيرات التي تطال حضور الدين وطبيعته، ومجموعة من التفسيرات المرتبطة بهذه التغيرات. إنّه ليس قانوناً علميّاً كونيّاً قابلاً للتطبيق، بل هو وصف وشرح لماضي المجتمعات الأوروبية ولنسلها المستقر. وعلى نحو مخالف للرسوم الكاريكاتورية المتكررة كثيراً، فإنّه ليس أنموذجاً تطوريّاً ولا يتضمن مستقبلاً منتظماً وحيداً، ولكنّه يفترض أنّ هناك «منطقاً اجتماعياً» للتغيرات المجتمعية. تسير بعض التفسيرات جنباً إلى جنب، بينما لا يفعل بعضها الآخر ذلك. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون لدى المجتمعات الإقطاعية كنائس تجسّد دولاً فعّالةً لا يمكن للديمقراطيات الليبرالية المتنوعة ثقافيّاً الحصول عليها، وهذا ليس من قبيل المصادفة. وكما سوف أبيّن أدناه، فإنّه يمكن تفسيرها بالميزات الأساسية للشكل الأخير للمجتمع.

ومن أجل تطوير براديغم عن العلمنة بشكل كامل تدعمه معطيات كافية لإقناع ذوي العقول المنفتحة (بعض الناس بعيدون عن الإقناع) يتطلب الأمر على الأقل كتاباً واحداً، وقد أنجزت بهذا الخصوص ثلاثة كتب[1]. إنّ كلّ ما أستطيع القيام به هنا هو تقديم بعض الحقائق التوضيحية، وتفصيل القول في جزء واحد من التفسير، وفحص بديل واحد لبراديغم العلمنة بشيء من التفصيل، والتماس أن يصوغ القارئ افتراضاً متساهلاً مؤدّاه أنّني تعاملت مع الانتقادات البارزة في أماكن أخرى.

العلمنة

في عام 1851 تردّد حوالي نصف سكان بريطانيا على الكنيسة بانتظام، وهم اليوم لا يتجاوزون حوالي 8 %. إنّ المعطيات الإحصائية المتعلقة بالمعتقدات الدينية تشمل فقط السنوات الخمسين الأخيرة أو نحو ذلك، لكنّها تظهر مساراً مشابهاً للإقبال على الكنيسة. لقد كان هناك تراجع ثابت في شعبية المعتقدات المسيحية الأرثوذكسية. وفيما يتعلق بوجود الله، ينقسم البريطانيون الآن وعلى نحو متساوٍ إلى أربعة مواقف: الاعتقاد في إله خالق شخصي، والاعتقاد في «قوة عليا أو قوة الحياة»، والاعتقاد في الغامض العجيب «يوجد شيء ما هناك»، والإلحاد (atheism) أو اللاأدرية (agnosticism). لقد كان التعميد فيما مضى شاملاً، وكان يُعتبر مهمّاً على نحو واسع جداً، ذلك أنّه في العصور الوسطى تعلّمت القابلات صيغة بسيطة لتعميد الأطفال الذين كان يُعتقد أنّه من غير المحتمل أن يبقوا أحياء حتى وصول الكاهن. أمّا الآن فإنّ الأطفال المعمّدين أقلّ من الثلث. وفي عام 1971 كان أكثر من ثلثي حفلات الزفاف دينيًا؛ أمّا الآن فهي أقل من الثلث.

لا توجد هناك حاجة للعمل على الفكرة التي تفيد أنّ: أيّ شخص مطلع على المجتمعات الأوروبية سيكون على بينة من الانخفاض الحاد للدين المنظم. ففي هولندا، ارتفعت النسبة المئوية المتعلقة بالسكان البالغين

1. Religion in the Modern World: From Cathedrals to Cults (Oxford: Oxford University Press 1996); Choice and Religion: A Critique of Rational Choice (Oxford: Oxford University Press, 1999); and God is dead: Secularization in the West (Oxford: Blackwell, 2002).

الذين يصفون أنفسهم بأنّهم لم ينشأوا في طائفة من 14 % عام 1930 إلى 39 % عام 1997 و42 % عام 2003[2]. كما أنّ الأغلبية الساحقة من السويديين (95 %) نادراً ما يحضرون العبادة العامة أو لم يسبق لهم أن فعلوا ذلك، ولا تجد هامبرج (Hamberg) دليلاً على صحوة دينية في وضع تصفه على النحو التالي:

لقد انخفضت نسبة السكان الذين يتمسّكون بالمعتقدات الدينية أو الذين يكرّسون أنفسهم لمثل هذه الأنشطة الدينية التقليدية كالصلاة والتردّد على الكنيسة في السويد خلال القرن العشرين. تشير البيانات إلى انخفاض لا يهمّ فقط انتشار المعتقدات الدينية ولكن أيضاً أهميتها[3].

وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية، التي صمدت بشكل منتظم ممثلة الاستثناء العظيم، تصل نسبة التردد على الكنيسة إلى حوالي 20 %، بانخفاض نسبته 50 % عام 1950. وبالقدر نفسه من الأهمية، نجد أنّ أولئك الذين ما زالوا مرتبطين بالدين المنتظم بقوة، يمارسونه بروح مختلفة تماماً عن تلك التي كانت لدى أجدادهم. لقد تخلّت معظم الكنائس المسيحية عن تركيزها على ما يتعالى على الطبيعة (supernatural)، أمّا الفوائد العلاجية للإيمان (التي احتلت ذات يوم المرتبة الثانية بخصوص نيل رضا الله وضمان الخلاص) فقد باتت الآن تمثل بيت القصيد. وتحوّل موقف معظم المؤمنين من كونهم أتباعاً مخلصين إلى كونهم مستهلكين انتقائيين.

يُعدّ تفسير تراجع الدين معقداً بالضرورة، والرسم البياني الذي أستخدمه في الغالب لتوضيح براديغم العلمنة يضمّ إحدى وعشرين خانة، سأذكر هنا بعضاً منها فقط. إنّ اعتماد الفكرة القائلة إنّ العلم يحلّ محلّ الدين في لعبة ربح وخسارة من أجل تفسير العالم يُعدّ تضليلاً إلى حد كبير. وخلافاً لتوقعات الثيولوجيين الليبراليين ودعاة «النقد الأعلى» في تسعينيات القرن التاسع عشر، يبدو أنّ الناس العصريين قادرون تماماً على الإيمان بكلّ أنواع الهراء (تشهد شعبية قصص الاختطاف الغريبة أو نظريات التفوّق العرقي على ذلك). وبقدر ما يؤثّر العلم في الإيمان، فإنّه يعطينا من خلال التكنولوجيا (بشكل صحيح أو خاطئ) شعوراً بأنّنا سادة مصيرنا. لقد رأى الفلاحون أنفسهم في القرون الوسطى، بشكل معقول، أنّهم بلا أهمية في أعين سادتهم الدنيويين أو في عين إلههم الخالق. لكنّ المستهلكين الغربيين العصريين يفكرون في أنفسهم بشكل أسمى نوعاً ما: إنّهم يختارون أفرانهم المايكرويفية، ويختارون حكوماتهم، كما يختارون أيّ إله يؤمنون به، ويختارون الطريقة التي يفعلون بها ذلك.

---

2. Nan Dirk De Graaf, Ariana Need, and Wout Ultee, "'Losing My Religion': A New and Comprehensive Explan-tion of Three Empirical Regularities Tested on Data for the Netherlands in1998," Patterns and Processes of Religious Change in Modern Industrial Societies—Europe and the United States, ed. Alasdair Crockett and Richard O'Leary (Lamenter: Edwin Millen, 1998) table 1.

3. Eva M. Hamberg, "Christendom in Decline: The Swedish Case," The Decline of Christendom in Western E-rope, 10–2000, ed. Hugh McLeod and Werner Ustorf Astor (Cambridge: Cambridge University Press, 2003) 47.

لقد كان ذلك المزيج من المساواة والفردانية والتنوع حاسماً في تهميش الدين. فأيّ نظام اعتقادي سيكون أكثر قبولاً عندما يكون موضوع اتفاق كلّي. وإذا كان كلّ شخص يؤمن بالأشياء نفسها، فإنّها لن تكون معتقدات؛ وإنّما ستكون بكلّ بساطة تفسيراً دقيقاً للكيفية التي تكون عليها الأشياء. وباستعمال فينومينولوجيا ألفرد شوتس (Alfred Schutz)، لفت بيتر بيرغر (Peter Berger) انتباهنا إلى تأثير «تعددية عوالم الحياة» في معقولية النظم العقائدية الدينية:

لقد انفرد وضعنا بسوق تضم وجهات نظر حول العالم تتنافس مع بعضها بعضاً. وفي هذه الحالة يُعدّ الحفاظ على اليقينيات التي تذهب إلى أبعد بكثير من الضروريات التجريبية للمجتمع والفرد وجعلها فاعلة أمراً صعباً جدّاً في الواقع. وبما أنّ الدين يرتكز أساساً على اليقينيات المتعالية على الطبيعة، فإنّ الوضع التعددي يكون وضعاً متعلمناً، وبحكم الواقع، يغرق الدين في أزمة مصداقية[4].

لا يحتاج الاختلاف، بطبيعة الحال، إلى أن يثير الشك. والردّ الأول على مثل هذا التهديد المعرفي يكون في العادة عنيفاً: فالمنحرفون يقتلون أو ينفون أو يحولون قسراً. هاهنا تصبح المساواة ذات صلة بالموضوع. ففي المجتمعات الصناعية الحديثة أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر في أوروبا، أصبح مقبولاً على نحو متزايد أنّنا متماثلون جداً على الرغم من الفروق الواضحة في الولادة والحالة والمواهب. لقد أصبح الناس يتردّدون في فرض الالتزام الديني، وصارت الطبقات الحاكمة ترى الانسجام الاجتماعي أهمّ من الأرثوذكسية الدينية. فإلحاح حركة الإصلاح على مسؤوليات الفرد أصبح بالتدريج مطالبة بحقوق الفرد، وغدت الحقوق تدريجيّاً منفصلة عن الهويّات الدينية.

وما لم تكن الدولة الحديثة مستعدّة لقبول مستويات عليا من الصراع الاجتماعي (أيّاً كانت)، وإذا كان عليها أن تطوّق التنوع، فإنّها يجب أن تصبح محايدة دينيّاً ما أمكن. لقد تمّ إخلاء المجال العمومي بشكل تدريجي، وهذا لا يلغي الدعم الحكومي الرسمي لدين معين فحسب؛ فالأهمّ من ذلك ـ وهنا يُعدّ اهتمام بيرغر «بما يؤخذ كأمر مسلم به» أمراً أساسياً ـ إنّه يزيل مجموعة واسعة من الفرص بالنسبة إلى تعزيز التقاليد الدينية من خلال التفاعل اليومي. وحيث تتقاسم جماعة معينة عقيدة مشتركة، فإنّ أحداثاً كبرى كالولادات والوفيات والزيجات يمكن إلباسها لباس الدين المشترك. وعلى النحو نفسه جرى التعامل مع مرور المواسم. وكلّ محادثة يومية يمكنها تعزيز المعتقدات المشتركة، بينما يفسّر الناس حتى الأمور الدنيوية كالطقس وغلة المحاصيل في حدود دينية. ويؤدي تفتيت الثقافة الدينية إلى مجموعة من البدائل المتنافسة إلى تقليص شديد لرتابة الدعم الاجتماعي من المستوى الأدنى للمعتقدات. عندما لا نعود متأكدين من أنّ أولئك الذين نلتقيهم يقاسموننا إيماننا، نميل إلى الاحتفاظ به لأنفسنا.

4. Peter L. Berger, Facing Up to Modernity (Hammondsport: Penguin, 1979) 213.

وعلى المستوى المجتمعي، فإنّ النتيجة على المدى الطويل هي التحوّل إلى أشكال من الدين أكثر ليبراليّة وتسامحاً، وفي نهاية المطاف التحوّل إلى اللامبالاة الحميدة. وعندما تكون جميع الأديان بمعنى ما صالحة بشكل متساوٍ، يفتقر الآباء إلى حافز يدفعهم إلى غرس العقائد في أبنائهم، وتظهر البيئة أرضاً صخرية لبذور الإيمان تلك ما إن تتمّ زراعتها.

ومن حيث شروط التصنيف الكلاسيكي للأشكال الدينية المستمد من فيبر(Weber) وترولتش (Troeltsch)، أصبح الشكل الكنسي للدين نادراً (مع وجود ثقافة مشتركة واحدة ومؤسسة توفر بنية واحدة للمعقولية بالنسبة إلى المجتمع بأكمله): إنّها تبقى على قيد الحياة في حالات فقط (بولندا حتى عام 1990، أيرلندا حتى الستينيات) حيث تتصرف الكنسية باعتبارها ضامنة للهويّة والوفاء الوطنيين. وعندما يصبح ذلك الدور زائداً عن الحاجة، تنخفض معدلات الالتزام بسرعة بينما تصير الكنيسة مجرّد مجموعة ضغط أخرى.

وهنا أودّ أن أضيف موجزاً جانبيّاً؛ لقد دفع القلق الجديد تجاه الأصولية الإسلامية في الغرب وردود أفعال بعض المسلمين الغربيين على المسائل السياسية الخارجية كالحرب في العراق والقضية الفلسطينية بعض المعلقين إلى اعتبار أنّ الشكل الكنسي للدين ربّما يستفيد من انبعاث ما. والفكرة هي أنّ التحديات الإسلامية التي تواجه الليبرالية الغربية والعلمانية قد تحفز انبعاثاً مسيحيّاً، عندما يشعر الأوروبيون الذين لهم التزام شكلي بتقاليدهم المسيحية التي كانت سائدة سابقاً، بأنّهم مدفوعون لاستكشاف دينهم الموروث، ومن ثمّ الحصول على التزام حقيقي به. ربّما يشجّع انبعاث المخاوف حول الحضور العام لدين واحد انبعاثاً في معناه الأكثر بساطة، وهذا يبدو أملاً يائساً. وبعيداً عن الملاحظة التي تفيد أنّ أولئك الناس الذين وصفوا أنفسهم بأنّهم «مسيحيون» في إنجلترا وويلز في إحصاء السكان لعام 2001 هم أكبر بكثير من عدد الذين أزعجوا كنيسة مسيحية معيّنة في أيّ وقت، فإنّه ليس هناك حتى الآن أيّ دليل تجريبي على وجود انبعاث ما. وبما أنّ المخاوف من الإسلام المتشدّد ليس لها أيّ تأثير في العلمنة في أوروبا، فإنّ عكس ذلك هو ما يتمنّاه قادة الكنيسة فيما يبدو. وبما أنّ معظم البريطانيين يفتقرون إلى أيّ معرفة بالمسيحية (ناهيك عن الالتزام بها)، فإنّهم لا ينظرون إلى التشدّد الإسلامي باعتباره دليلاً على أنّ الإسلام دين سيّئ، بل باعتباره تأكيداً على أنّه لأمر سيّئ أن يؤخذ أيّ دين على محمل الجدّ.

بالعودة إلى تصنيف الأشكال (الدينية)، يمكن للطائفة الدينية أن تحافظ على وجودها إذا استطاعت عزل نفسها عن المجتمع الأوسع (وهذا ممكن في أجزاء من الولايات المتحدة الأمريكية، لكنّه مستحيل في المجتمعات الأوروبية)، لكنّ هذا يأتي على حساب تضحية كبيرة من قبل أعضائها. تتراجع الطائفة تدريجياً لأنّ أعضاءها يفتقرون إلى الحوافز القوية لتلقين أبنائهم (عقيدة الطائفة). وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن الطائفة (cult). غالباً ما يستعمل هذا المصطلح عرضاً للدلالة على أيّ دين جديد صغير لا نحبه. أمّا أنا فأستعمله للدلالة على شكل من أشكال الدين المتسامح إلى أبعد الحدود، يؤكد على التجربة الخاصّة ويمنح الفرد السلطة الأولى ليقرّر أو تقرّر ما سيؤمن أو ستؤمن به. لا يوجد هذا الشكل من الدين في المنظمات الرسمية

الكبرى، بل يوجد في الوسط: وهو عالم من المنافذ والعبارات المتداخلة التي يرسم المستهلكون الأفراد من خلالها مساراتهم الخاصة المتعلقة بالتفضيل. وسأفحص في بقية هذا المقال مستقبل هذا الشكل من الدين.

الروحانية المنتشرة

تقوم العديد من التوجّهات المضادة لبراديغم العلمنة على الاعتقاد بأنّ الناس متدينون بالأساس. فالدين لا تتمّ مقاربته باعتباره إنجازاً اجتماعيّاً (مثل النطق بالفرنسة على سبيل المثال) بل باعتباره تعبيراً عن حاجة بيولوجية فطرية. تدفعنا الحقائق المزدوجة القائلة إنّنا سنموت جميعاً، وإنّه يمكننا تمييز النفس عن الجسد، إلى التساؤل عمّا أسماه الثيولوجي بول تيليش (Paul Tillich) «الأسئلة النهائية».

وإذا كان الحال أنّنا جميعاً في حاجة إلى الدين، إذ ذاك ستكون العلمنة على المدى الطويل غير ممكنة. وإذا انخفضت شعبية أديان معينة، إذ ذاك يجب أن تنشأ أخرى لتملأ الفراغ. ولفترة وجيزة في السبعينيات، بدا الأمر وكأنّ مجموعة من الحركات الدينية الجديدة المستلهمة عادة من الشرق، كانت في طريقها لملء الفراغ الذي خلّفه تراجع الكنائس المسيحية، لكن سرعان ما أصبح واضحاً على ما يبدو أنّ التسلق كان خاطئاً. عندما يعجز المونيون[5] (Moonies) عجزاً تامّاً عن جمع أكثر من ألف عضو في بريطانيا، ولا تقترب جميع الحركات الدينية الجديدة معاً من الأرقام التي خسرتها الكنائس الرئيسة في شهر واحد، فإنّ الأمل في أنّ هذه التجديدات يمكنها إعادة الطابع المركزي للدين لعام 1900 أو 1950 كان مثل وضع محرك قطار لعبة لسحب عربات شحن حقيقية.

إنّ المرشح الأكثر منطقية هو روحانية «العصر الجديد» التي تتّصف بطابعها الفرداني الشخصي المفرط، والتي ترجع إلى الوسط الاجتماعي الطائفي. لقد وضع ريجيس ديبري (Regis Debray) هذه النقطة بشكل أنيق بقوله إنّ غسق الآلهة كان «صباح السحرة»[6]. والاثنان مرتبطان بالتأكيد من حيث الموارد الجانبية. لقد أبطل تراجع الكنائس المسيحية قدرتها على تقبيح البدائل باعتبارها أجنبية وخطيرة. ففي عام 2005 قام ضابط خدمة بحري بتأسيس الوثنية ديناً شرعيًّا يجب على القوات المسلحة البريطانية استيعابه. وكما يلاحظ بارتريدج (Partridge)، كانت هناك زيادة كبيرة في نطاق الإلهامات والعلاجات الروحانية المتوفرة في الغرب[7]. لكن يجب علينا ألّا نخلط بين مقاييس العرض والطلب. فما يهمّ بالنسبة إلى اختبار دعوى العلمنة ليس هو حجم العروض الروحانية المتوفرة، بل أعداد الذين يهتمّون بها، وبأيّ روح يفعلون ذلك.

5 هم أعضاء كنيسة التوحيد بالولايات المتحدة، اشتق هذا الاسم من اسم مؤسس الكنيسة سان ميونغ مون، وقد استعمل لأول مرّة سنة 1974 في وسائل الإعلام الأمريكية.

6. Régis Debray, God: An Itinerary (London: Verso, 2004) 259.

7. Christopher Partridge, the Re-Enchantment of the West, vol. 1 (Edinburgh: Clark, 2004).

الجدول1: تجربة العصر الجديد وبروزه، أسكتلندا 2001

	الأبراج(أ) %	قراءة الطالع(ب) %	اليوغا والتأمل %	الطب البديل(ت) %
مهمٌّ جداً	1	2	3	5
مهمٌّ قليلاً	4	4	7	15
ليس مهمّاً جداً	21	13	9	20
ليس مهمّاً قط	15	11	4	5
غير مجرّب	59	70	78	55

ملاحظة: كان حجم العينة لهذا الجدول 1605. تتباين نسبة المجاميع عن 100 بسبب التقريب:

أ- استشارة الأبراج في الصحف والمجلات.

ب- استشارة قارئ بطاقة التارو أو العرّاف أو المنجّم (استبعاد الأبراج في الصحف والمجلات).

ت- الطب البديل أو التكميلي مثل العلاج بالأعشاب أو المعالجة المثلية أو طب الروائح.

في عام 2001، سأل المسح الأسكتلندي للمواقف الاجتماعية أفراد عينة تمثيلية عمّا إذا كانوا قد جرّبوا أيّ مجموعة من أنشطة العصر الجديد المحتملة مثل بطاقات التارو[8] أو قراءة الطالع أو التنجيم أو اليوغا أو التأمل، وأشكال الطبّ أو العلاجات البديلة والأبراج؛ وإذا فعلوا، فما مدى أهميتها في حياتهم[9]. ويلخّص الجدول 1 الردود.

لم يجرّب معظم الأسكتلنديين هذه الأمور، خاصة تلك التي تمثل التزاماً هامّاً، وأولئك الذين جرّبوها لا يعتقد معظمهم أنّها مهمّة جداً. ربما كانت الأسئلة مفرطة في حدّتها بشكل منع من إيلاء الأجوبة اهتماماً كبيراً، لكنّ هناك نمطاً واضحاً يتناسب تماماً مع ما وجده الزملاء في جامعة لانكستر (Lancaster) في دراستهم عن مقدّمي العصر الجديد ومستهلكيه في كندال (Kendal)، وهي بلدة صغيرة تقع في الشمال الغربي لإنجلترا[10]. وبإشراف بول هيلاس (Paul Heelas) وليندا وودهيد (Linda Woodhead)، استخدم فريق البحث مجموعة واسعة من التقنيات لتحديد كلّ شيء (من دروس اليوغا المنظمة إلى كلّ واحد من العلاجات) يمكن النظر إليه باعتباره نشاطاً للعصر الجديد، ومن خلال مقابلات ومسح مفصّلين وضعوا

8 مجموعة أوراق لعب تُستخدم لقراءة المستقبل أو الطالع.

9. Steve Bruce and Tony Glendinning, "Religious Beliefs and Differences," Devolution-Scottish Answers to Sco - tish Questions, ed. Catherine Bromley, John Curtice, Kerstin Hinds, and Alison Park (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003) 86–115.

10. Paul Heelas and Linda Woodhead, The Spiritual Revolution: Why Religion Is Giving Way to Spirituality. (Oxford: Blackwell, 2005).

تقديراً معقولاً. وقد خلصوا إلى أنّ ما بين واحد إلى اثنين في المئة من السكان شاركوا في الوسط الشمولي (holistic milieu) في أسبوع عادي.

غير أنّه يجدر بنا أن نمعن النظر في الأنشطة التي فحصوها. إذ يلخّص الجدول 2 توزيع أنشطة الوسط الشمولي تحت تسعة عناوين[11].

الجدول 2

النشاط %
يوغا وتاي تشي 45.5
الرقص، الغناء، الفنون والحرف 5.6
التدليك، الرياضة 13.9
المعالجة المثلية 3.6
الاستشارة 3.5
مجموعات الشفاء والصحّة التكميلية 11.2
الريكي والشفاء الروحاني 6.1
الجماعات الروحية / الدينية المتخصّصة 5.6
متفرقات تتعلق بعلاقة واحد واحد 5.0

إنّه لمن الصعب ألا تكون مأخوذاً بالروحانية الواضحة لبعض الأنشطة. إنّ أكثر من نصف المشاركات كلها تقع ضمن ما ينظر إليه معظم الناس باعتباره ترفيهاً أو استجماماً: اليوغا والتاي تشي[12] والرقص والغناء والفن. إضافةً إلى التدليل (التدليك، الرياضة) فتكون قد غطيت الثلثين تقريباً. ليست كلّ "مجموعات الشفاء والصحة التكميلية" روحانية بوضوح أو حتى غير تقليدية؛ فرعاية مرضى السرطان، الحائزة على جائزة يوبيل الملكة للخدمة التطوعية في المجتمع، واحدة من أكبرها. تعتمد نسبة عادلة من أنشطة الشفاء على معتقدات معينة، لكن حتى هذه (على سبيل المثال، المعالجة المثلية[13]، الريكي[14]) تبدو علماً زائفاً، وليست روحانية بالضرورة.

لحسن الحظ، لم يكن علينا أن نتجادل حول طبيعة النشاط أو أهميته بالنسبة إلى المعنيين به، لأنّ وودهيد وهيلاس سألا مستجوبيهم عمّا إذا كانوا يعتبرون أنشطتهم روحانية، فاعتبر 51 % فقط من المستجوبين أنّ

11- أنا ممتنّ للصديق المتعاون ديفيد فوس، من جامعة مانشستر، لإعداده هذه الملخّصات عن بيانات كندال. تتاح البيانات الأصلية للجميع على: <www.kendalproject.org.uk>.

12رياضة روحانية مستوحاة من فن عسكري صيني قديم.

13 شكل من أشكال الطبّ البديل يستند على مفهوم «المثل يعالج المثل».

14 ممارسة روحانية تقوم على استخدام تقنية الشفاء بالكف.

دروسهم في اليوغا روحانية؛ وبالنسبة إلى فئة التدليك، كانت نسبة الروحانية 28 % فقط؛ أمّا فيما يتعلق بجراحة العظام فكانت النسبة 10 %؛ وبالنسبة إلى "تدليك القدم" (التي تضمنت 48 شخصاً بالإجمال) فكان الرقم 25 %، حوالي 45 % من المشاركين في أنشطة الوسط الشمولي يعتقدون أنّها روحانية. وقد أكد أقلّ من نصف المستجوبين أنّ مشاركتهم ليس لها أيّ علاقة على الإطلاق بالازدهار الروحاني.

وفي دفاعهما عن كلّ هذا النشاط باعتباره "ثورة روحانية"، أكّد هيلاس وودهيد أنّ "الرقم الذي وصلا إليه عن الوسط الشمولي يظهر أنّ بروس خاطئ عندما ادّعى أنّ "عدد الأشخاص [في بريطانيا] الذين أبدوا الاهتمام بالأديان البديلة تافه[15]، «سيكون الجدال حول ما ليس «تافهاً» غير مثمر، لكنّ نتائج عملهما تبدو واضحة جداً. فالأخذ بروحانية العصر الجديد في مجالها الضيق أمر تافه. ومن أجل الحصول على أكثر من 1% من السكان، يجب علينا الإحاطة بمجموعة من الأنشطة الترفيهية المستوردة، كالأساليب المتنوعة للاسترخاء، والأشكال المختلفة من الطبّ البديل، التي تمارس كلّها من قبل أناس لا يتظاهرون حتى بأنّهم يرونها أنشطة روحانية. وبدلاً من رؤية العصر الجديد على أنّه تعويض عن تراجع في المسيحية، يجب أن نراه امتداداً للجراحة أو العيادة أو الصالة الرياضية أو صالون التجميل. فهي تُعنى في المقام الأول بالصحة البدنية والنفسية.

مستقبل العصر الجديد

لتعزيز الفرضية القائلة إنّ ما نشهده هو تراجع لشكل واحد من الدين بدل العلمنة بحدّ ذاتها، توقّع هيلاس وودهيد أنّ حجم الوسط الشمولي سيتضاعف على مدى الأربعين إلى الخمسين سنة المقبلة[16]. وهذا يبدو مستبعداً جداً. إنّهما يعترفان بأنّ للروحانية الشاملة حالياً جاذبية سوسيوديمغرافية ضيقة إلى حدٍّ ما، وأنّ القسم المعني من السكان بهذا الأمر (النساء البيضاوات المثقفات في منتصف العمر، العاملات في المهن الموجّهة إلى الناس) قد يكون مقترباً من نقطة الإشباع. وبعيداً عن النمو، فإنّه من غير الواضح حتى إن كان الوسط الشمولي يستطيع إعادة إنتاج نفسه ثانية. وردّاً على سؤال حول ما إذا كان أبناؤهم مهتمّين بالنشاط، ردّ ثلثا المستجوبين الآباء بـ«لا». إنّ هيلاس أكثر اندهاشاً من حقيقة أنّ 32 % قالوا «نعم»، لكنّ هذا المستوى من الانتقال كارثي[17]. ففي مجتمع حيث يكون للآباء طفلان فقط في المتوسط، 100 % منهم يجب أن يشاركوا في نشاط معيّن لكي يستمرّ على المدى الطويل. إنّ انتقال الانتماء والعقيدة والحضور وغيرها من الأمور المسيحية بين الأجيال يقف حالياً عند حوالي 50 %، الذي يعتبر على نطاق واسع مشكلة رئيسة

15. Heelas and Woodhead 54–5.

16. Heelas and Woodhead 137.

17. Paul Heelas and Benjamin Seel, “An Ageing New Age?” Predicting Religion: Christian, Secular and Alternative Futures, ed. Grace Davie, Paul Heelas, and Linda Woodhead (Aldershot: Ashgate, 2003) 234.

للكنائس[18]. وأمام العصر الجديد جبلٌ أعلى يجب عليه تسلقه، لأسباب ليس آخرها أنّ النساء اللواتي لهنّ اهتمامات روحانية أكثر عرضة من المتوسط لأن يكنّ بلا أولاد.

وباختصار، فقد فشلت دراسة مفصلة جداً للمجتمع أجراها معلقون متعاطفون مع روحانية العصر الجديد في إقناعنا بأنّ هذا الوسط يقترب من توفير بديل فعّال لتراجع الكنائس المسيحية. وبالعودة إلى لعبة القطار المجازية نقول: إنّ المقياس خاطئ.

الذات والأديان الأخرى

إنّ عالم العصر الجديد ليس صغيراً جدّاً فحسب، وإنّما هناك أسباب وجيهة لوصفه بالهشّ. فضعف الجماعة في العصر الجديد ليس من قبيل المصادفة، لكنّه نتيجة حتمية لأساس سلطتها «الأناوحدي» (solipsistic). تعتبر الذات في العصر الجديد الحكم النهائي للحقيقة والمنفعة. فما يناسبك يُعدّ صحيحاً. وليس هناك أيّ أساس شرعي لكي تفرض على الآخرين شيئاً ما أو حتى تجادلهم. وهذا ما يجعل أيّ نوع من النشاط المشترك صعباً بشكل ملحوظ. فإذا اختلف اثنان من الناس لن يكون هناك أساس لحلّ الخلاف. وفيما يتعلق بالحديث عن الثقافة المضادة والمجتمع البديل، يفسّر ما سبق لماذا لم تنشئ روحانية العصر الجديد مدارسها ومجتمعاتها المحلية البديلة.

وعلى الرغم من أنّهما لا يقدّران أهمّية أمثلتهما الخاصة (يريدان وصف المنتمين إلى العصر الجديد بأنّهم «قبيلة»)، فقد قدّمت دراسة برنس (Prince) وريتشز (Riches) عن العصر الجديد في غلاستونبري (Glastonbury) أمثلة واضحة عن عدم القدرة على التعاون[19]. ففي أحد الأمثلة، انهارت مدرسة ابتدائية لأنّ الآباء لم يستطيعوا الاتفاق على ما يريدون لأبنائهم أن يتعلموه ولا على كيفية تعلمه. وفي مثال آخر، قرّرت مجموعة صغيرة من المنتمين إلى العصر الجديد الالتقاء بانتظام في صباحات الأحد كنوع من العمل الجماعي «للعبادة»، وفي اللقاء الأول تحدّثوا عمّا سيفعلونه، لكن لم يستطيعوا التوافق. وقد حضرت قلة منهم اللقاء الثاني وتلاشت المبادرة.

تثير إثنوغرافيا غلاستونبري مشكلة عامّة مثيرة للاهتمام حدثت لي أوّل مرّة بينما كنت ألقي محاضرة للطلاب حول الإصلاحات الاجتماعية التي أطلقها الإنجيليون البريطانيون في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. ليس من باب المبالغة أن نقول إنّ حضارة المجتمع الصناعي تدين بالكثير للمسيحيين الملتزمين. لقد كان انتهاء العبودية، والقيود على تشغيل النساء والأطفال في المصانع، والسيطرة

18. David Voas, "Intermarriage and the Demography of Secularization," British Journal of Sociology 54.1 (2003): 83–108.

19. Ruth Prince and David Riches, the New Age in Glastonbury: The Construction of Religious Movements. (New York: Berghahn, 2000) 166–7, 176–8.

على استغلال العمّال، وبناء سكن لائق لهم، وإدخال تحسينات على السجون، وبنوك الادخار، والتأمين المتبادل، والمعاهد التعليمية للعمال، والتعليم العمومي للفقراء، كلّ هذا كان من نتائج النشاط الخيري من قبل الناس الذين حركتهم الأفكار القائلة إنّه يمكننا أن نتوقع بصعوبة أن يكون الفقراء قلقين حول أرواحهم عندما كانت أجسادهم متقرحة ومضطهدة، وإنّ المجتمع الذي ادّعى أنّه مسيحي لا يمكنه أن يكون بربريّاً أيضاً. وضدّاً على هذا المثال، يبدو أنّ التأثير الاجتماعي للمنتمين إلى العصر الجديد تافه، وأنا سآخذ نقطتين من المقارنة.

أولاً: وحده الدين الذي يمتلك نقطة مرجعية سلطوية خارج الفرد قادر على تحدي أيّ وضع راهن. ولنترك لأدواتنا الخاصة ذلك المزيج من الكسل والمصلحة الذاتية الذي سيجعل من التضحية احتمالاً بعيداً دائماً. وعلى الرغم من أنّ المنتمين إلى العصر الجديد مولعون بالحديث عن رؤاهم وعلاجاتهم باعتبارها تغيراً في الحياة، فإنّ ما يتغير من حيث الممارسة غالباً هو المواقف المتعلقة بظروفهم فقط. فالمصرفي التاجر القلق والمقيّد الذي يمارس اليوغا والتأمل لا يتوقف عن كونه مصرفيّاً؛ قد ينال بعض الانفصال عن دوره المرتبط بالعمل، ويصبح مصرفيّاً شموليّاً أكثر ارتياحاً، لكنّه يستمرّ في التيار الرئيس. فالعدد الذي «سينخفض» سيكون قليلاً جداً. إنّهم يبيعون المنزل ذا الثمن الباهظ في لندن، وينسحبون إلى كوخ في ويلز (Wales) أو كمبريا (Cumbria) لصنع الفخار، أو يشتغلون في ورشات نهاية الأسبوع في شفاء الريكي. لكنّ الأهمية بالنسبة إلى المجتمع الأوسع تكاد لا تذكر. والأسوأ من ذلك أنّ التغير، في العديد من الحالات، لا يتجاوز اكتساب لغة جديدة للدفاع عن أنماط السلوك القديمة. لنأخذ على سبيل المثال الاستغلال الجنسي، فبقراءة عدد من حسابات فيندهورن (Findhorn)، المركز الأقدم للعصر الجديد في أوروبا، صدمت من أنّ الذكر المنتمي إلى العصر الجديد غالباً ما ينجح في إغواء النساء الأصغر سناً عبر إقناعهن بأنّ الاتصال بمشاعرهن الحقيقية، أو اكتشاف الملاك داخلهن، أو اكتساب قوتهن، أو خلق علاقات حقيقية، يعني ممارسة الجنس [20]. وباستخدام اللغة الاصطلاحية لماكس فيبر (Max Weber)، يبدو أنّ رفض العالم للدين ممكن فقط إذا كان هناك مصدر للوحي مشترك وخارجي وموثوق: فالإله هو الذي يعاقب أولئك الذين يحيدون عن الطريق. وإذا كانت الذات هي المصدر الوحيد للسلطة ـ كما هو الحال في الشعار الكلاسيكي للعصر الجديد، «كن صادقاً تجاه ذاتك» ـ فأيّ منظور أو وحي جديد من المرجّح أن يتمّ استيعابه في ظروفنا الحالية بدلاً من أن يحدث تغييراً.

ثانياً: بينما كانت الحركة الإنجيلية الفكتورية أكبر من مجموع أجزائها، نظراً لأنّها كانت متكونة من أفراد تجمعهم عقيدة مشتركة، نجد أنّ حركة العصر الجديد أقلّ من مجموع أجزائها دائماً، لأنّه حتى بوجود نواة حقيقية معادية للثقافة ومحرّضة بشكل كبير، فإنّها غير متحدة بواسطة المعتقدات والقيم المشتركة. أو

20. Steve Bruce, "Good Intentions and Bad Sociology: New Age Authenticity and Social Roles," Journal of Co -temporary Religion 13.1 (1998): 23–36.

كي نكون أدق، إنّه متحد فقط بالمبادئ المعرفية والمشغلة التي تتّسم بتجريدها المفرط مثل، «لا أحد لديه الحق في إخبار أيّ شخص آخر بما يجب أن يقوم به».

ليس هدفي هنا انتقاد روحانية العصر الجديد (على الرغم من أنّ هذا أمر تصعب مقاومته)؛ إنّه تفسير لسبب فشلها في مقاومة الخيار المشترك والإفساد. فمنذ الستينيات تمّ استيراد عناصر من المخزون الديني للعالم بأكمله إلى بريطانيا، لكن بدل تحويل البريطانيين العلمانيين من طرف العرافة الصينية، وأكواخ الأمريكيين الأصليين، والأفكار الهندوسية عن الكرما[21] (karma)، تمّ تجريد هذه الابتكارات من محتواها الديني[22]. ففي سياقه الأصلي، يُعدّ الفينج شوي[23] (feng sui) أمراً خطيراً نظراً لارتباطه بأرواح الموتى، أمّا في بريطانيا فإنّه أسلوب زخرفة، واليوغا لم تعد نظاماً روحانيّاً، وإنّما برنامج تمارين رياضية، والتأمل لم يعد يرتبط بنيل الاستنارة وإنّما بالاسترخاء، وطبّ الأيورفيدا[24] (ayurvedic) صار مجرد خطٍّ آخر لمستحضرات التجميل من سلسلة بودي شوب (Body Shop).

خاتمة

لقد ركّزتُ على روحانية العصر الجديد لأنّها تشجعنا على الدفع بجزء من نقاش العلمنة إلى الأمام. ففي بريطانيا، انكمشت الكنائس المسيحية إلى نقطة حيث باتت إعادة الإنتاج مهدّدة، إذ أنّ الأديان الرئيسة غير المسيحية التي جلبها المهاجرون إلى بريطانيا منذ عام 1945 لم تستخدم خارج قواعدها العرقية الأصلية، وفي السبعينات فشلت الحركات الدينية الجديدة في تحقيق أيّ تقدم. لدينا الآن مجتمع علماني إلى حد كبير جدّاً، ليس فحسب في العمليات الرسمية للمؤسسات الاجتماعية الرئيسة، بل في الثقافة الشعبية أيضاً. إنّنا في حالة رواية تاريخية. فعلى مدى السنوات الثلاثين القادمة أو نحو ذلك، قد نكون قادرين على رؤية ما إذا كانت المجتمعات متدينة لأنّ الناس متدينون، أو نقيض ذلك. فإذا كان الحال أنّ الناس، بمعنى ما، مهتمّون بشكل من الأشكال بالديني والروحاني (بالتالي ستكون علمانيتنا الحالية مؤقتة)، إذ ذاك سنرى قريباً دليلاً على ذلك. وبه ستبدو روحانية العصر الجديد مرشحاً قويّاً لمستقبل الدين، لأنّ الروح الاستهلاكية الفردانية تتناسب تماماً مع روح العصر.

إنّ المطلوب هو بحث جادٌّ يتجه نحو تقويم انتشار الأشكال البديلة من الروحانية وتأثيرها وأهميتها. وإلى الآن، تمكّن القليل من العمل من تخطي حالة الإعجاب بنمو المعروض من الابتكارات الروحانية. وفي هذا العمل، كما حاولت إنجازه، تبيّن أنّ الروحانيات البديلة لن تدحض براديغم العلمنة.

21 مفهوم أخلاقي في المعتقدات الهندوسية، حيث النوايا والأفعال الفردية تؤثر في مستقبل الفرد.

22. Bruce, God Is Dead, 118–39.

23 علم يُعنى بالطاقة ومدى تأثر الإنسان بما حوله.

24 مجموعة من تعاليم الطبّ التقليدي، نشأت في شبه القارة الهندية.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016